بالجزيرة الخضراء في المحرم سنة تسع وسبعين واربعمائة ويحكى ان موضع المعترك على اتساعه
ماكان فيه موضع قدم الا على جسد او دم واقامت العساكر بالمواضع اربعة ايام حتى جمعت
الغنايم فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين واثر بها ملوك الاندلس وعرفهم ان مقصوده
انما كان الغزو لا النهب فلما رات ملوك الاندلس ايثار يوسف لهم بالغنايم استكرموه
واحبوه وشكروا له ثم ان يوسف بن تاشفين امر بالرجوع الى بلاده وكان عند قصده ملاقاة
الادفونش يجري المسير بالعدو من غير ان يمر بمدينة او رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه
الادفونش وهنالك اجتمع بعساكر الاندلس وذكر ابو الحجاج يوسف بن محمد البياسي في كتاب تذكير
العاقل وتنبيه الغافل ان يوسف بن تاشفين نزل على اقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الاربعاء
وكان الموعد في المناجزة يوم السبت الادنى فغدر الادفونش ومكر فلما كان سحر يوم الجمعة
منتصف رجب من العام اقبلت طلايع ابن عباد والروم في اثارها والناس على طمانينة فبادر
ابن عباد الركوب وانتشر الخبر في العساكر فماجت باهلها ووقع النهب ورجفت الارض
صار الناس فوضى على غير تعبية ولا اهبة ودهمهم خيل العدو فغمرت ابن عباد واحاطت
ما تعرض لها وتركت الارض حصيدا خلفها وجرح ابن عباد واصابه جراح اسواه وفر رؤس
الاندلس واسلموا محلاتهم وظنوا انها داهية لا ترتفع ونازلة لا تدفع وظن الادفونش ان امير
المسلمين في المنهزمين ولم يعلم ان العاقبة للمتقين فركب امير المسلمين واحدقت به انجاد جنده
ورجاله من صنهاجه ورؤسا القبايل فقصدوا الى محلة الادفونش فاقتحموها ودخلوها و
قتلوا حاميها وضربت الطبول فاهتزت الارض وتجاوبت الافاق وتراجع الروم الى محلهم
بعد ان علموا ان امير المسلمين فيها فصدموا امير المسلمين فافرج لهم عنها ثم كر فاخرجهم منها
ثم كروا عليه فافرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى ان امر امير المسلمين حشمه السودان
فترجل منهم اربعة الاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان
فطعنوا الخيل فرمحت فرسانها واحجمت عن اقرانها وتلاحق الادفونش باسود نفذ من ازمته
باليدين فاهوى ليضربه بالسيف فلصق به الاسود فقبض على عنانه وانتضى خنجرا كان
متنطقا به فاثبته في فخذه فهتك حلق درعه وشك فخذه بداد سرجه وكان وقت الزوال
من ذلك اليوم فهبت ريح النصر وانزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه وصدقوا الحملة على
الادفونش واصحابه فاخرجوهم عن محلاتهم فولوا ظهورهم واعطوا اعناقهم بضعيهم الى ان
لحقوا بربوة لجاوا اليها واعتصموا بها واحدقت بهم الخيل فلما اظلم الليل انساب الادفونش
واصحابه من الربوة وافلتوا بعدما نشبت فيهم اظفار المنية واستولى المسلمون على ما كان في
محلاتهم من الاثاث والابنية والمضارب والاسلحة وامر ابن عباد بضم رؤس قتلى الروم
فنشر منها امامه كالتل العظيم ثم كتب ابن عباد الى ولده الرشيد كتابا واطار به الحمام
في يوم السبت سادس عشر المحرم يخبره بالقصد وقد روي ايضا ان امير المسلمين طلب من
اهل البلاد المعونة على ما هو بصدده فوصل كتابه الى المرية في هذا المعنى وذكر فيه ان جماعة من
يجوز ان طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال اهل المرية لقاضي بلدهم وهو ابو
عبد الله بن الفراء ان يكتب جوابه وكان هذا القاضي من الدين والورع على ما سيجي فكتب

اليه اما بعد فهمت ما ذكره امير المسلمين من اقتضاء المعونة وما جرى عن ذلك وان ابا الوليد الباجي
وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس افتوه بان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها
وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه في قبره ولا شك في عدله فليس امير
المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بضجيعه في قبره ولا من يشك في عدله
فان كان الفقهاء والقضاة انزلوك بمنزلته في العدل فالله سايلهم عن تقلدهم فيك
وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف ان ليس عنده درهم
واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم فليدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة اهل العلم
ويحلف ان ليس عنده درهم ولا في بيت مال المسلمين وحينئذ يستوجب ذلك والسلام
ولما قضى امير المسلمين من هذه الوقعة ما قضى امر عساكره بالمقام وان تشن الغارات على
بلاد الفرنج وامر عليهم سير بن ابي بكر وطلب الرجوع في طريقه فتكرم له المعتمد بن
عباد فخرج به الى بلاده وساله ان ينزل عنده فاجابه يوسف الى ذلك فلما انتهى الى اشبيلية
مدينة المعتمد وكان من اجمل المدن منظرا ونظر الى موضعها على نهر عظيم مستبحر تجري فيه
السفن بالبضايع جالبة من بر المغرب وحاملة اليه في غربيه رستاق عظيم مسيرة عشرين
فرسخا يشتمل على الاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون وهذا الموضع هو المسمى بشرف
اشبيلية ويمير بلاد المغرب كلها من هذه الاصناف وفي جانب المدينة قصور المعتمد و
ابنه المعتضد في غاية الحسن والبهاء وفيها انواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب
والملبوس والمفروش وغير ذلك فانزل المعتمد يوسف بن تاشفين في احدها من اكرامه و
خدمته ما اوسع شكر ابن تاشفين له وكان مع ابن تاشفين اصحاب له ينبهونه على تامل
تلك الحال وما هي عليه من النعمة والاتفاق ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ويقولون ان فايدة
الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد واصحابه وكان يوسف بن تاشفين
مقتصدا في اموره غير متطاول ولا مبذر مسرف في صنوف الملاذ بالاطعمة وغيرها وكان قد
ذهب صدر عمره في بلاده في شظف العيش فانكر على من اغراه بذلك الاسراف وقال الذي
يلوح من امر هذا الرجل يعني المعتمد انه مضيع لما في يده من الملك لان هذه الاموال التي
تعينه في هذه الاحوال لا بد ان يكون لها اربات لا يمكن اخذ هذا القدر منهم على وجه
العدل ابدا فاخذه بالظلم واخرجه في هذه النزهات وهذا من تحقق الاستهتار ومن
كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الاحوال متى يستجد همه في حفظ بلاده
وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها ثم ان يوسف بن تاشفين سال عن احوال
المعتمد في لذاته وهل يختلف فتنتقص عما هي عليه في بعض الاوقات فقيل بل كل زمانه على
هذا قال افكل اصحابه وانصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظا من ذلك قالوا
لا قال فكيف ترون رضاهم عنه قالوا لا رضى لهم عنه فاطرق يوسف وسكت فاقام يوسف
عند المعتمد على تلك الحال اياما وفي بعض تلك الايام استاذن رجل على المعتمد فدخل وهو
ذو هيئة رثة وكان من اهل البصائر فلما دخل عليه قال له اصلحك الله ايها الملك ان
من اوجب الواجبات شكر النعمة وان من شكر النعمة اهداء النصايح واني رجل منـ عتيك

Copyright © King Saud University